السؤال النقدي عن شروط إمكانية المعرفة الموضوعية، وعن حدود العلم الإنساني ومدى معرفته (. . .). ولا تختلف النظرة الشاملة إلى العالم في الإديولوجيا كثيراً عن عناصر أخرى مثل تقنيع الوعي والوجود وامتلاك موقف مزدوج من حجب الحقيقة وادعاء الإديولوجيين بامتلاكها وحدهم والتصرف من موقف ايماني عقدي متصلب، وكذلك النظرة العدائية للموقف الإديولوجي المضاد المرتد، وكل هذا نتيجة لوقوع الإديولوجيا في دائرة العمل السياسي»[14].

يمكننا القول إن الخبرة التي اكتسبتها نظرية الإديولوجيا هي التي مكنت بعض الدارسين من دراسة الأنماط الإديولوجية من منظار يتجاوزها هي نفسها وهو ما يسمح لنا بأن نكتب عن الإديولوجيا لأن كل كتابة عن الإديولوجيا مهما كان حيادها لا بُدَّ أن تحتوي على ذلك التعالي الافتراضي (أي الضمني) عن الإديولوجيات ذاتها.

وإذا عدنا إلى الحديث عن الإديولوجيا السياسية فإننا نرى أنه بالنظر إلى ذلك المظهر الشمولي الذي تَحَدَّث عنه بايرون في الفقرة السابقة ـ وغيره من الباحثين ـ اعتبرت الإديولوجيا أحياناً كشيء مطابق لرؤية العالم ولا يُسْتَثْنَى التوسير من هذا الرأي فهو يقول:

«تتميز الإديولوجيا بوصفها نسقاً للتصور عن العالم، من حيث أن الوظيفة العملية الاجتماعية تتغلب فيها على الوظيفة النظرية المعرفية)»[15].

هذا الطابع الشمولي الذي تتمظهر من خلاله الإديولوجيات يسلمنا إلى الحديث عن الشكل الثاني من أشكال الإديولوجيا وهو الإديولوجيا كرؤية كونية.

الإديولوجيا كرؤية كونية:

يبدو أن عبدالله العروي لا يفصل كل الفصل بين الإديولوجيا كقناع، وهي الإديولوجيا السياسية، والإديولوجيا كرؤية كونية وهو يوضح ذلك في صلب كتابه عندما يقول:

«الإديولوجية قناع لمصالح فئوية إذا نظرنا إليها في إطار مجتمعي آني، وهي نظرة إلى العالم والكون إذا نظرنا إليها في إطار التسلسل التاريخي»[16].

والواقع أنه لا تهم نظرتنا نحن إليها، فالإديولوجيات دائماً تحمل نزوعاً إلى الشمولية والكونية في منظومتها هي نفسها. أما إثبات أنها كونية فعلاً أو غير كونية، فهذا في الواقع يتجاوز الإديولوجيا في ذاتها إلى المتأملين فيها. فعندما يُلاَحِظُ هؤلاء تخلي إديولوجية ما

---

(14) المرجع نفسه، ص 168، عمود 1 - 2.

(15) جي بويللي، مرجع مذكور، ص 80، عمود 1، فقرة 1.

(16) مفهوم الإديولوجيا (مرجع مذكور)، ص 53.